

# الاتصال ودوره في النمو الثقافي

د. أحمد حسن محمد

## الاتصال ودوره في النمو الثقافي

د. أحمد حسن محمد<sup>(H)</sup>

لل:

عدت قضية الاتصال محورا أساسياً، تدور حوله علل كثير من مظاهر الحياة الإنسانية، فإن الحق سبحانه يوم خلق آدم ؑ إنما كان ذلك لحكمة ربانية، ولرسالة سامية تقام على أرض الله سبحانه، ومنها إقامة حق الله تعالى بإحياء سننه، وعمارة الدنيا بعبادته سبحانه، ومن ثم يقام المجتمع القادر على استخدام مخلوقات الله تعالى في الكون كله عن وعي وإدراك سليمين) بما يحقق المنافع ويدرك المفسد وصدق الله العظيم حين قال: هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ وَأَنْزَلَكُمْ فِيهَا رُوحَهُ وَإِلَيْهِ لَتَرْجِعُونَ (1) رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ { (1).

وامكان لمثل هذه المهمة أن تتحقق دون تلاحم الناس وتعارفهم واتفاقهم، أي اتصال بعضهم ببعض بما تحمله هذه الفطرة، فطرة الاتصال: من مواقف اتفاق ومواقف اختلاف، مواقف تعاون ومواقف

(H) أستاذ مشارك بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية . جامعة إفريقيا العالمية

(الخرطوم . السودان).

(1) سورة هود، الآية (61).

مَنَافَسَتُوا لِلَّهِ بِدَفْعِ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَدَدَاتِ الْأَرْضِ وَلَكِنَّ اللَّهَ  
ضَرُوفٍ عَلَى الْعَالَمِينَ { (1).

لبيُّ قِيمِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَمُتْلُهَا الْعُلْيَا، وَنَشْأَةُ الْأَمَالِ وَالتَّطَلُّعَاتِ، وَكَافَةُ  
الرَّغْبَاتِ الْبَشَرِيَّةِ تَتَّبَعُ مِنْ هَذَا التَّلَاحِمِ، وَتَبَادُلِ الْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ، فَتَقَامُ  
الْحَضَارَاتِ، وَتَنْشَأُ التَّقَاتِ سِوَاءِ فِي الْمَجَالِ الْمَادِي وَالْإِنْسَائِي، أَوْ الْمَجَالِ  
الْفِكْرِي وَالتَّقَاتِي { اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَدَعُ لَهْدَمَتِ صَوَامِعُ  
وَبَرِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْتِغْرَاءُ اللَّهِ لِيَنْصُرَنَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ  
إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ { (2).

وَعَلَى ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْإِتِّصَالَ الْبَشَرِيَّ كَانَ وَمَا زَالَ وَسِيلَةً أُسَاسِيَّةً دَافِعَةً  
لِلِاسْتِمْرَارِ الْحَيَاةِ، وَدَفْعِ النِّشَاطِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَإِحْدَاثِ التَّغْيِيرَاتِ التَّقَاتِيَّةِ  
وَالاجْتِمَاعِيَّةِ، بَلْ يَدْفَعُ النِّشَاطُ الْاجْتِمَاعِيُّ وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الْحَضَارَةِ، حَيْثُ  
يَنْتَقِلُ بِالْأَفْرَادِ وَالشُّعُوبِ مِنَ التَّعْبِيرِ الْغَرِيْبِيِّ إِلَى الْإِلْهَامِ بِمَا يَنْشِئُ اتِّفَاقاً  
عَاماً بَيْنَ الْأَفْكَارِ، وَيُؤَكِّدُ الشُّعُورَ بَيْنَ النَّاسِ يَعِيشُونَ مَعَ بَعْضِهِمُ الْبَعْضَ،  
مِنْ خِلَالِ تَبَادُلِ الرِّسَائِلِ وَتَرْجُمَةِ الْفِكْرِ إِلَى عَمَلٍ، تَعْبِيرًا عَنِ الْعَوَاطِفِ  
وَالْحَاجَاتِ، ابْتِدَاءً مِنْ أَسْطِ الْمَهَامِ الَّتِي تَكْفُلُ بِنَاءَ الْإِنْسَانِ، حَتَّى أَسْمَى  
مَظَاهِرَ الْإِبْدَاعِ أَوْ أَشَدَّ مَظَاهِرَ التَّدْبِيرِ (3).

(1) سورة البقرة، الآية (251).

(2) سورة الحج، الآية (40).

(3) ستون ماكبرايد: أصول متعدّدة و عالم واحد، اليونسكو، 1981م، ص 27.

## طبيعة الاتصال وفطرته:

إذا كان الاتصال وسيلة للتربط والتماسك الاجتماعي؛ فإنه يتعدى ليكون حلاً لكثير من مشكلات الإنسان، بما يوفره من وعي يبدد ما يعترى الفرد من جهل بكثير من الأمور، ويحقق التفاهم والتوافق الاجتماعي، ومن ثمّ تقوية أواصر الأفراد والجماعات بما يسوق إلى رؤية عميقة.

لأنّ الاتصال يعني تأسيس جماعة، أو تحقيق مشاركة، وبمعنى آخر يعني التقاء الأفكار والعقول من خلال رموز مشتركة في أذهان المشاركين، ويمكن القول بأنّ الاتصال كعملية تتسم بالتعبير المستمر والعلاقة الفاعلة، هو اتصال ذو اتجاهين بمعنى أنه يتضمن عنصرين متفاعلين، مرسلًا، ومستقبلًا يتلقى الاتصال وليس مجرد رسالة حيث إنّ مفهوم الرسالة قد لا يتطلب معها وجود مستقبل.

هذا فإنّ عملية الاتصال هي عملية اجتماعية، لا يمكن أن تتم في عزلة الفرد، ولكن لا بدّ من فرد آخر أو أفراد آخرين حتى تتم عملية الاتصال. وحتى يمكن إدراك المفهوم الشامل للاتصال؛ نشير إلى أنّ عملية الاتصال لا تتم من خلال صورة واحدة أو مظهر واحد، ولكنها عملية تتحقّق بالكلمة المنطوقة أو المكتوبة كما تتحقّق من خلال مجموعة أفعال حركية أو أنماط سلوكية متعددة.

فالتفاهم قد يتم بابتسامة أو بالعيون، كما قد يتم بالإشارة أو بحركة من الرأس أو اليد، وهذه كلها أفعال تتحدث وتتخاطب كما لو أنّها كلمات،

فتعطي دلالات اتصالية بين طرفين... بل إن الصمت وعدم الكلام قد يكون وسيلة اتصال معبرة عن مضامين تجد الاستجابة من طرف آخر، ولعل ما جاء في سورة آل عمران حينما عرضت الآيات لقصة نبي الله زكريا حيث قال **بَلِّغْ أُمَّيَّI** ثلاثاً أيامٍ إلا رمزاً<sup>(1)</sup>. ويقول فيها الإمام أبو عبد الله القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن": "هذه الآية دليل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام، وذلك موجود في كثير من السُّنة، وأكد الإشارة ما حكم به النبي ﷺ أمر السوداء حيث قال لها: **يُنَّ الله؟ قافتي: السَّمَاءُ، قَالَ: أَذَا؟ قَالَتْ: رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنَّهَا مَوْمِنَةٌ**<sup>(2)</sup>.

فأجاز الإسلام بالإشارة، الذي هو أصل الديانة الذي يحرز الدم والمال، ويستحق به الجنة، وينجي به من النار، وحكم بإيمانها كما يحكم

(1) سورة آل عمران، الآية (41).

(2) انظر الحديث في: صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من الإباحة، برقم 537، وسنن أبي داود، كتاب تقريع أبواب العمل = في الصلاة، باب تسميت العاطس في الصلاة، برقم 930، وسنن النسائي، كتاب السهو، باب الكلام في الصلاة.

بنطق من يقول ذلك، فيجب أن تكون الإشارة عاملة في سائر الديانة وهو قول عامة الفقهاء<sup>(1)</sup>.

هنا النوع من الاتصال عُرِفَ بالاتصال غير اللفظي أو (اللغة الصامتة) كما يسميه "إدوارت هول" في كتابه: اللغة الصامتة<sup>(2)</sup>.

وظهر أهمية الإشارة خاصة في هذه اللغة الصامتة في حالة البعد المكاني أيضاً، حيث لا يصل الصوت. لذا فقد تم استخدامها قديماً عبر آلاف السنين في المجتمعات التقليدية، مما أورث هذه المجتمعات ثقافات واتجاهات؛ كان لها أثرها البين في مسيرتها الحضارية والفكرية. ولعلّ فيما تركه قدماء المصريين من آثار، وغيرهم من البابليين والآشوريين ما يؤكد ذلك بوضوح، وبما ساعد على فهم ثقافة وفكر هذه الممالك القديمة جداً، بل وقد تركت بصماتها على جوانب الحضرة المعاصرة.

تطور وسائل الاتصال:

من خلال العرض السابق تبين أن الاتصال عملية نشأت مع نشأة الإنسان، وكلت ضرورة من ضرورات وجوده وتطوره... ومن هنا فقد أخذ

(1) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع أحكام القرآن، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت (د.ت)، ص 81.

(2) جون ميرل: الإعلام وسيلة ورسالة، ترجمة د. مساعد خضر الحارثي، دار المريخ، الخرطوم، السودان (ت. بدون).

أشكالاً ووسائل ارتبطت بتطور المجتمع البشري، ثقافةً، كِفاً، وإبداعاً.. وعلى الرغم من الوصول إلى نماذج متقدمة جداً لوسائل اتصالية؛ فإنّ لوسائل القديمة كانت وما تزال عاملاً مؤثراً في التجديد، بل إنّ بعضها ما زال فاعلاً باعتبارها وسائل مؤثرة في تشكيل الفكر البشري وتوجيه النشاط الاجتماعي.

ويمكن استعراض جانب من وسائل الاتصال بما يمكن معه إدراك حجم تأثير هذه الوسائل في تحقيق عملية الاتصال داخل المجتمع الإنساني. ومدى ما يتحقق من نمو في كثير من الجوانب المعيشة مع الأخذ في الاعتبار أنّ هذه الوسائل لا تحمل الرسالة فحسب؛ بل تعتبر في الوقت نفسه رمزاً للاتصال.

أولاً: الوسائل لفطرية واللأغوية:

وهي التي سبق تناول جزء منها ممثلاً في: الإشارة، وحركات اليد، والوجه وتعبيراته، وهي ما يسمى أيضاً "بلغة الأجسام" أو اللأغية غير المنطوقة" مثل: الصور، والرسوم، والنحت، وحركات الرقص، والرياضة، وغيرها من الفنون الشعبية، التي لا تخدم أغراض التسلية فحسب؛ ولكنها تستخدم في التأثير في الموقف والسلوك والتعبير عن مشاعر إنسانية.

ويظهر ذلك جلياً في المجتمعات التي تقوم على التقاليد الموروثة بسبب عزلتها أو صغر حجمها أو تفشي الأمية فيها، فإنّ أكثر وسائل نقل المعرفة شيوعاً فيها هي تلك التي تقوم على التخاطب الحركي أو لغة

الأجسام. وعلى هذا الأساس فإنه يمكن القول بأنَّ بعض شعوب العالم .  
و لاسيما البلاد النامية . يتقبلون رسائل من خلال هذه الوسائل البدائية  
التقليدية.

وتتضمن هذه الوسائل أيضاً ما يصدر عن الإنسان من أصوات  
وصرخات، تعبر عن مضمون معيّن، وتصل إلى المستقبل عن طريق  
الأذن، ويدخل فيها دق الطبول وما تطورت إليه من أصوات موسيقية فيما  
بعد.

ومع مسيرة الإنسانية تحولت الإشارات الصوتية إلى ألفاظ يتفق عليها  
لثقل على معنى معيّن، أو شيء معيّن، ومن ثم كانت نشأة اللّغة.. ونظراً  
لتباعد المجتمعات وتأثرها وانعدام المواصلات قديماً؛ فإنَّ كل جماعة اتفقت  
على ألفاظ محدّدة تعينها على التفاهم فيما بين أفرادها ممّا أوجد عدداً  
هائلاً من اللّغات، بل ومن اللهجات، تأثرت بالثقافات المحلية وتطورت بعد  
ذلك إلى نماذج لغوية تحمل اصطلاحات ومعانٍ تعبر عنها كلمات معينة  
لها نطق معين، أمكن لها أن تكون صانعة ثقافة وفق أساليب حضارية  
مميزة، أعطت للتجربة الإنسانية تطوراً كبيراً، ومكاسب حققت للإنسانية  
استجابة سليمة لكثير من المواقف والمتغيّرات المتعددة، سواء في مجال  
الفكر والمعرفة، أو في أساليب الإنتاج والاختراع، أو في مجال العلاقات  
الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والسياسية. وهكذا أصبحت اللّغة



المسموعة أداة يتم تطويعها وفقاً لأغراض الإنسان، بل هي التطور المتقدم للإشارة الصوتية التي بدأ بها الإنسان الأول عندما عجز عن النطق بالكلمات<sup>(1)</sup>.  
أهمية اللغة في عملية الاتصال:

لظهور اللغة وتطورها كان له أكبر الأثر في تقوية ووضوح الاتصال الإنساني، الأمر الذي جعل الإنسان يتفوق على الحيوان، وباللغة اكتسب مضمون الاتصال اتساعاً وعمقاً كبيرين، بما لهما من قدرة على إضفاء الدقة والتفصيل في التعبير على عملية الاتصال، وبذلك يمكن القول بأن اللغة تعدُّ وسيلة أساسية لتطوير الفكر ونشأة الثقافة، بل وحفظ التولثيوكمَّد تأصيل عملية الاتصال الإنساني، وقد حظيت بعض اللغات باستخدام مطَّرد، وبعضها أصبح له مكانة أساسية في تبادل المعلومات والبرامج، وطبقاً لبعض الدراسات فإنَّ عدد اللغات يتراوح ما بين ألفين وأربعة آلاف لغة، منها حوالي 500 لغة لها حروف هجائية بما يتيح لها تراثاً مكتوباً وأدباً يدرس<sup>(2)</sup>.

(1) انظر: د. محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة،

1992م، ص 10.

(2) كينيث كاترمز: كتاب لغات العالم، يونيو 1975م.

غير أنه من مملوم أن بعض هذه اللغات كان لها قصب السبق في الانتشار والسيادة، مما جعلها لغة الثقافة المعاصرة يتكلم بها عدد كبير من بلدان العالم، مثل الإنجليزية والفرنسية، فأصبحت تُعدُّ لغات عالمية. لِّلُّ اللُّغة هي تجسيد لتقاليد عريقة في القدم وتمثِّل تعبيراً عن الثراء والتنوع الحضاري، بما تيسِّره من فرص متكافئة للتفاهم، وتزداد الأهمية كلما كانت اللُّغة تمتلك القدرة على الانتشار بأساليب الطباعة، وثنائها بالحروف التي يمكن كتابتها، بمعنى آخر لغة قادرة على التعامل مع وسائل الاتصال المكتوبة والمقروءة. الاتصال واللُّغة الصامتة في الثقافة الإسلامية:

لقد ظلت آيات الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ النموذج الأمثل في تحقيق صلاح المجتمع، واستخدام الوسائل الفاعلة لضمان الصلات الحميدة بين الأفراد، والمجتمعات، والأمم، وفق قواعد الأخلاق والفضيلة، فضلاً عن حرص هذا الدِّين على تأكيد معاني العبودية لله تعالى، والتي تقود إلى حضارة واعية، وثقافة مؤثرة، من خلال عمليات الاتصال التي تنشأ من التقاء المسلمين في مناسبات متكررة ومتتالية، سواء كان ذلك في المسجد والصلوات الجامعة اليومية، والأسبوعية، والموسمية، أو في صعيد الأرض المقدسة، بما يقود لنموذج أخلاقي رفيع.

وإذا كانت الأخلاق سمة من سمات الثقافة ونتاجاً من نتائج تأثيرها على المجتمعات؛ فقد كان الإسلام حريصاً على تأكيد طهارة أخلاق الأمة

بطهارة الوسائل، ونبذ كل ما يحول دون سلامة الأفراد والمجتمعات في علاقاتهم النظيفة.

ومن واقع التسليم بأثر الاتصال ووسائله في دعم أو نقض الموجهات الصالحة للأمة، فقد جاءت آيات الله تعالى تحذّر الأمة من أي اتصال يقود إلى الفساد، أو يعطل مسيرة الطهر والعفاف بين أبنائها، فنجد في قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ فَتَفْسَدُوا وَتَكْفُرُوا﴾ (1) فَيُؤْتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى (1).

لأنّ الكلمة حينما ينطق بها الإنسان تعطي دلالة معينة، قد تختلف هذه الدلالة إذا ما صاحب النطق حركة، أو تمايل، أو تعبير بإشارة، أو تعبير في سمة الوجه، فتصبح لها معانٍ أخرى.. والخضوع بالقول أي تلاين الحديث مع الالتواء في إخراج الألفاظ، قد يوهم السامع بمقاصد مغايرة لمعاني الكلمات المنطوقة، بما يؤدي إلى استجابة مغايرة أيضاً تبعاً لمفهوم المستقبل، ومن هنا نهى الإسلام عن خضوع النساء بالقول، وأمرهن بالتحدث بلسان سليم ولهجة مستقيمة، لا تحمل إشارات ومفاهيم تحيد الكلمة عن مقصودها، أو توحى بمضمون يبعد عن الذُّق والاستقامة.

(1) سورة الأحزاب، الآيتان (32-33).



ثوابها وأجرها عندما تكون في المسجد جماعة، بل ذهب بعض العلماء إلى كونها واجبة في حق كل مسلم<sup>(1)</sup>، بل يؤكد صورة اتصالية بين أفراد الحي الواحد، تحت مظلة إيمانية هادية يتوجهون فيها لله رب العالمين، ومن هذا المنطلق تتأكد معاني العبودية لله تعالى وتنتشر مفاهيم العمل الصالح، وتصاغ ثقافة الناس وفق هدي الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

ثم كانت صلاة الجمعة، التي يتسع فيها حجم المصلين وهم يستمعون إلى الرسالة الموجهة من خلال خطبة الجمعة، فتعطي نمطاً محدداً للثقافة الجماهيرية لم يسبق إليها نظام إعلامي أو ثقافي.. إنها جامعة للناس يتلقون نماذج هادية للتعامل والعبادة والتفكير، ينطلقون بها إلى مجتمعاتهم وأنشطتهم **المُخَفَّلَةُ الْفُجَيْدَاتِ الصَّلَاةُ فَاَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ** وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ<sup>(2)</sup>.

مؤتي سدُّ بل الاتصال المؤثر والفاعل في ثقافة الأمة لتشمل قدراً أكبر من اللقاء والتأثير على مستوى القرية أو المدينة في صلاة العيدين، ثم على المستوى العالمي ليكون الحج الأكبر، حيث تشهد ساحات الأراضي المقدسة التقاء الثقافات والاتجاهات باختلاف جنسياتها وعاداتها

(1) بل ذهب الحنابلة إلى كونها فرض عين في كل صلاة، بينما ذهب الأئمة الآخرون إلى أنها سنة مؤكدة على كل مسلم، إذا لم تقم في أهل بلد قوتلوا على تركها. انظر: الفقه على المذاهب الأربعة، ص 406.

(2) سورة الجمعة، الآية (10).

ومظاهرها، ليحدث أكبر وأعظم أنواع الاتصال البشري الهادف للإشدهدوا  
 نَافِعَ لَهُمْ وَمَيِّذُ كُرُوَا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ لِّلنَّبِيِّ هَآرَازَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ  
 الْأَنْعَامِ { (1)}

ولعلَّ الأعوام تشهد لما لشعيرة الحج من أثر اتصالي، باعتباره أعظم  
 مؤتمر عالمي يجمعُمة الإسلام على منهج واضح، ويعود الدُّجَّاج إلى  
 بلدانهم بثقافات ومعالم جديدة تُميِّز فكرهم وسلوكهم.  
 لِّلَّ للعبادات وللهي القرآني عامة أثراً اتصالياً مميّزاً، يقود إلى ثقافة  
 عالية تبدأ بالفرد، ثم الجماعة، ثم الأمة، حتى تشمل العالم أجمع.

ثليناً : الوسائل الصناعية والمبتكرة:

لم يتوقف الاتصال على القدرات الإنسانية الفطرية؛ بل أخذ أشكالاً  
 جديدة مع تطور المجتلبشري، فلم تَعُد اللُّغة فقط ما يصدر عن صوت  
 الإنسان، بل ما يقرأه النَّاس وما يسمعون من خلال أجهزة سمعية أو ما  
 يرونه من خلال أجهزة مرئية.

بل إنَّ ثورة الاتصال انطلقت بانطلاق المخترعات الحديثة، ليس في  
 مجال الإعلام والأخبار فقط؛ بل في مجال النقل والمواصلات التي جعلت

(1) سورة الحج، الآية (28).

العالم قطراً متصلاً مترابطاً بعيداً عن العزلة، ولا سيما بعد ظهور القطارات والطائرات السريعة.

وكن للبريد وتطوره أثره الواضح كذلك في تحقيق اتصال سريع عبر أسلاك البرق والهاتف، أتاح للإنسان قدرة أفضل من خلال قنوات اتصال لا تُحصى بين الأشخاص في كل المجتمعات، فأعطى للمجتمع الإنساني تجانساً اجتماعياً، وإسهاماً واضحاً في البنيات العلمية، والثقافية، والتجارية، حتى أصبحت مراكز تتجمع حولها أنشطة التنمية بكل أشكالها.

ويشكل نظام البريد نموذجاً اتصالياً يعتمد على القراءة والكتابة، بينما يمدّل نظام الهاتف نموذجاً للاتصال الشفهي أو الشخصي التقليدي، بما يتمتع به من قدرة فائقة على تيسير الحوار الثقافي المباشر، حتى أصبح أداة معترفاً بها في تحقيق التنمية وإحداث التغيير في العالم بصفة عامة، والعالم الثالث بصفة خاصة، وهكذا أصبحت وسائل النقل على اختلاف أنواعها . سواء أكانت نقل الأشخاص أو نقل المكتوب من الصفحات، أو نقل الكلام المنطوق . سبباً أسلياً من أسباب التعبير والتأثير الثقافي والاجتماعي في مجتمع الإنسان المعاصر.

موتلَعُ د هذه الوسائل اليوم ضرباً من ضروب الحضارة والمدنية؛ بل أصبحت ضرورة لازمة وشرطاً أساسياً للتنمية الشاملة ولمسيرة الحياة اليومية، وتخلّف هذا النموذج من نماذج الاتصال بوسائله المذكورة؛ إنما

يُعَدُّ عَقبَةُ خَطيَرةٍ تحوُلُ دونَ كَثيرٍ منَ الآثَارِ الإِيجابِيةِ في عَمَليَةِ التَّنمِيةِ الثقافيةِ والحَضارِيةِ.

ثَلَاثاً : الوَسائِلُ الحَدِيثَةُ (الثَّورَةُ الإِلِكْترونيَّةُ):

عندما ظهر اختراع الطباعة انتقل العالم إلى عصر جديد من عصور الاتصال، وأدى هذا الاكتشاف إلى مساحة عريضة جداً من الاتصالات، ووسائل متعددة ظهرت آثارها في ظهور الصحافة وفنونها، وأعيدت نشر العلوم والمؤلفات والمخطوطات بصورة جعلتها في متناول معظم المجتمعات الإنسانية، مما ساعد على إحداث ثورة ثقافية هائلة.

وظلت الطباعة تنصدر مكان الريادة حتى كانت ثورة جديدة في عالم الاتصال، وهي الثورة الإلكترونية. إذا جاز التعبير والتي ظهرت وحدثت بعد حوالي أربعمئة عام من اختراع حروف الطباعة، ومما زاد من أهمية هذه الوسائل المستحدثة أنها أخذت في التطور السريع، ودخلت عليها ابتكارات ازادت من قدرتها على تحقيق قدر أوسع لاتصال عالمي، كما حدث بالنسبة للراديو وتعدُّد موجاته وانتشارها، وكذا التلفاز الذي بدأ بصورة بسيطة متواضعة وانتهى اليوم إلى جهاز متعدّد الوظائف والقدرات، مما جعله جهازاً قادراً على مخاطبة العالم كله، ومشاهدة الحدث في وقت واحد، وفي ساعة حدوث الحدث نفسه.

وفضلاً منَ فإنَّ هذا التطورَ أضافَ وظائِفَ جديدةَ لهذهِ الأجهِزةِ الاتصاليَّةِ، فلمَ تقفَ عندَ حدودِ نقلِ الخبرِ أوِ الحدثِ؛ بلِ استخدمتِ في



التعليم، والاقتصاد، وعالم النشاط الرياضي والفني، وغير ذلك من الاستخدامات الحضارية، مما ضاعف قدرة الاتصال وتأثيراته<sup>(1)</sup>. ومع ظهور الأقمار الصناعية ومضاعفة قنوات التلفاز وتعددها.. ومع الصراع الذي نشأ حول امتلاك الفضاء لأغراض الاتصال، ظهرت الإذاعات الموجهة للعالم باللغات المختلفة والمتعددة، مما أوجد تقنيات أكثر تقدماً، وأشدّ شيئاً، وأوفر عطاءً في عالم الاتصال، قامت عليها وظائف جديدة تعمل في خدمة المجتمع الإنساني، ليس على المستوى الإقليمي فقط؛ بل على المستويات العالمية الدولية، ونظراً لأهمية هذه التقنيات الجديدة نحاول أن نلقي عليها ضوءاً سريعاً في هذا البحث، بما يربط القارئ بالمفهوم العام للاتصال حيث تُعرّف في عالمنا المعاصر بتقنيات الفضاء أو الأقمار الصناعية. الأقمار الصناعية وأهميتها الاتصالية: نظراً لأهمية الوظيفة التي تقوم بها هذه الأقمار الصناعية؛ يجدر بنا الإشارة إلى هذه الأهمية، وما تقوم به من دور فعّال في العملية الاتصالية<sup>(2)</sup>.

(1) انظر: د. سعد خضر الحارثي، الإعلام وسيلة رسالة، ص 100-99.

(2) لمزيد من المعلومات يُرجع إلى: د. إنشراح الشال: الإعلام عبر الأقمار الصناعية، دار الفكر

العربي، القاهرة، 1992م.

نشأت فكرة هذه الأقمار خلال عام 1945م لتحقيق الاتصال عبر الفضاء، وساعد على ذلك الحرب الباردة التي تسببت في انتشار الصواريخ العابرة للقارات، ولم يتم استخدام الأقمار الصناعية في مجال الاتصال إلا في عام 1958م بإطلاق الصاروخ أطلس، ثم القمر الصناعي إكو (1) (Echo 1) عام 1960م، وتوالى أنواع جديدة من الأقمار زوّدت بأجهزة استقبال وتسجيل لإعادة البث، حتى استطاعت هذه الأقمار نقل المخابرات الهاتفية، وبرامج تلفاز، والفاكس، والمعلومات العلمية، والصور بعد إدخال العديد من التقنيات المتطورة إليها، فاستخدمت في نقل الأحداث والأنشطة المختلفة.

حتى ظهر ما يسمى بالقمر التجاري عام 1965م الذي عُرف باسم "طائر الصباح" وبوساطته أمكن لأوروبا أن ترى وتسمع بابا الكنيسة الكاثوليكية بول السادس وهو يلقي خطابه في الأمم المتحدة في سبتمبر 1965م.

وفي أغسطس عام 1964م وقّعت سبع وأربعون دولة موثيق لإرساء نظام عالمي للاتصال عبر الفضاء، حتى كان عام 1974م حيث تم توقيع ميثاق الأقمار الصناعية، ووافقت فيه الدول السبع والأربعون على طبيعة هذه الأقمار التجارية.

ومن الطريف أن هذه الأقمار كان لها دور في بعض المواقف الاجتماعية، حيث تم التعرف على مجرم خطير بعدما وجّه التلفاز الكندي أوصافه عن طريق "قمر الصباح"، بل استخدمت في المزاد العلني الذي أجري عام 1975م، واستطاع أحد القواد أن يشتري صورة المستر ونستون تشرشل المعروضة في صالة عرض بلندن عن طريق الدائرة المغلقة، بينما هو لم يبارح مكانه في نيويورك.

كلمتمكّن أطباء في جنيف من متابعة إحدى عمليات القلب الدقيقة التي أجريت في هوستون بولاية تكساس الأمريكية، هذا عدا نقل العديد من المؤتمرات العلمية، والدورات الرياضية، والأنشطة المختلفة. الاتصال والمستقبل:

على الرغم من التطور الكبير في وسائل الاتصال الذي أعطى مضامين ووظائف جديدة لعملية الاتصال، وبالتالي آثاراً ملموسة في المجتمع البشري وقضايا التنمية بكل فروعها وتخصصاتها؛ فإنّ الواقع الملموس يدلُّ على مستقبل متجدّد، تنمو فيه عملية الاتصال بصورة أسرع وبطرق أكثر فعالية، وتعدّت عملية الاتصال الدور الفردي في الإرسال. أي المرسل الفرد. لتصبح وسائل جديدة للتفكير والمشاركة والأخذ والعطاء، أي تتحول وسائل الاتصال إلى مجالات حية يتعايش فيها الأفراد والجماعات حول عمل مشترك أو مشروع جامع، ونذير ذلك في هذا الاختراع الحديث "الإنترنت" الذي يتيح اتصالاً مزدوجاً لا بين فرد وفرد

فقط؛ بل بين فرد وجماعات، وبين جماعات وجماعات، أي يصبح جامعة أو منتدى يلتقي فيه الناس، يسمعون ويشاهدون بعضهم بعضاً.. كإخراج عملية جراحية يمكن أن تكون محاضرة لطلاب الطب في أكثر من بلد وأكثر من قطر، يشاهدون ويسألون ويجدون الإجابة، بل و يتعاملون مع المعلومة الجاهزة في الوقت الذي يريدون، ومما لا شك فيه أن انتشاراً أفضل لثقافات وحضارات سيتحقق من خلال هذه الوسائل، بل ومعالم جديدة لمجتمعات إنسانية ستظهر نتيجة هذا النوع من الاتصال والتي ستقود إلى طفرة هائلة في المعلومات في كافة المجالات الحياتية.

وما لا شك فيه أن القدرة على معالجة هذه الكميات المتاحة من المعلومات ستؤدي إلى تغيير نوعي في عملية الاتصال ذاتها، وبالتالي ستظهر لها . بل وظهرت فعلاً . أثر اجتماعية وسياسية يمكن أن تحطم أو تلغي أنماطاً قائمة للمعلومات، مما سيجعل الناس يعيدون النظر في قدرة وسائل الإعلام التقليدية ولعل الأزمة التي تواجه كثيراً من الصحف مثلاً في بعض البلدان إنما كانت وليدة انصراف الناس إلى الوسائل الحديثة والحصول على المعلومات من مخزونها في البنك . بنك المعلومات . كمدان احتكار الإذاعات سيقبل تدريجياً لشيوع وسيلة الحصول على المعلومة بالطرق الحديثة.

وهكذا سيظل ارتباط تاريخ الحضارة بتاريخ الاتصال ابتداءً بالكلمة واللغة، مروراً بالكتابة والطباعة والراديو، حتى عصرنا الحاضر عصر الانفجار المعلوماتي، تحكي قصة الإنسان وتحدّد المراحل المستجدة في تطوره والفرص الجديدة المتاحة<sup>(1)</sup>.  
فاعلية الاتصال والنمو الثقافي:

في عرضنا السابق محاولة لتوضيح مفهوم الاتصال، بوصفه عملية اجتماعية متكاملة، تتيح للمجتمع البشري التواصل والتفاهم وتبادل الخبرات والأفكار بعد أن اتخذ وسائل متعددة تطورت بتطور حاجة الإنسان علماً وثقافةً وتفكيراً.

ولتعدّ هذه الوسائل الاتصالية قاصرة على نقل الحدث أو المعلومات، ولا حتى القيام بتفسيرها فحسب؛ ولكنها تقوم بصنع الحدث نفسه وصياغة القرار الذي يتعلق بالحدث المعني بما يحمله من قيم وأفكار ومبادئ لها قدرة التأثير على الثقافة بمعناها العام (القيم والمواهب والاتجاهات وأنماط السلوك).

لذا الاتصال في الوقت الحاضر احتل أهمية قصوى في حياة الشعوب والأمم، حيث أنّ له قدرة التأثير في سائر مجالات العلاقات والقرارات

(1) د. فاتح زغل: قدرة وسائل الاتصال الحديث في التأثير على المجتمع، ندوة وسائل الاتصال

والأنشطة الاقتصادية و الثقافية والسياسية (بما تزودها بها من معلومات) ليس فقط على المستوى المحلي؛ بل في محيط العلاقات الدولية. بل ما توفّر للإنسان اليوم من تقنيات حديثة أسهم بصورة فاعلة في ترسيخ القيم أو زلزلتها وبالتالي ساعد في بناء الإنسان أو هدمه. صحيح أنّ هذه التقنيات أدّت دوراً بارزاً في تقرير التفاهم والتقارب بين الشعوب، ولكنها أيضاً أسهمت في تشويه كثير من الحقائق حول الآخرين بالتعميم المتعمّد على قضاياهم وتزييف الواقع وفق الأهداف والأطماع التي يملكها صاحب الرسالة<sup>(1)</sup>.

لقد أدّت الاتصال في احتكار العملية التعليمية والثقافية، بل أصبح وسيلة مهمة في النشر بعد استخدام التقنيات الحديثة التي أتاحت الكثير من فرص الحصول على الأخبار ورؤية البرامج الإعلامية المختلفة ومعايشة الأحداث المحلية والعالمية والاطلاع على المتغيّرات الثقافية والسياسية والاقتصادية وآثارها على المجتمعات المختلفة والتي كانت محكومة بقوة وسائل اتصالية تقليدية، حتى القنوات الفضائية وتقنيات النقل

(1) لُحْمَد فرّاج: ندوة وسائل الاتصال في التأثير على المجتمع، الإيسيسكو، ص 135.12.

والتحرك إلى مكان الحدث محلياً وعالماً بصورة سريعة لم تكن ميسرة من قبل<sup>(1)</sup>.

وهنا قد يقال: إنَّ مثل هذا الجمهور هو من الصفوة القادرة على امتلاك التقنيات الحديثة أو استخدام وسائل النقل السريعة، غير أنَّه يمكن القول أيضاً إنَّ أمثال هؤلاء أنفسهم يعدون وسائل اتصالية بما يحملونه إلى مجتمعاتهم من مؤثرات ثقافية وحضوية، ومثال على ذلك طلاب البعثات الخارجية لا يعودون من دراساتهم وبعثاتهم التخصصات العلمية وحدها؛ بل يعودون بعادات وتقاليد وثقافات جديدة قد يجد الكثير منها بقولاً في مجتمعاتهم الأم.

الثقافة والمجتمع:

تعدُّ الثقافة الصورة الحية للأُمَّة والتي تحدّد ملامح شخصيتها، وتعمل على ضبط اتجاهات سيرها؛ بل وترسم أهدافها، وتصدر معالم لثقافة عمّا يسود الأُمَّة من عقائد ومبادئ ونظم بجانب سيرتها التاريخية ورصيدها المعرفي، وتظل الثقافة القائمة على هذه الأسس مسيطرة للأُمَّة في سيرتها مع حركة الحياة.

(1) انظر: د. سعد لبيب، وسائل الاتصال الحديثة وتأثيرها على المجتمع، ندوة الاتصال،

وتعتبر القيم السائدة في المجتمع هي محور الثقافة التي تميّز هذا المجتمع، ويوم أن تتمزق هذه القيم أو تضيع في متهاتات التغيير والغزو الفكري والثقافي؛ فإنّ المجتمع يعاني ألساة حقيقية لشعوره بالتمزق وفقدان الهوية، ومن ثمّ استسلامه لتيارات غريبة عن أصلاته مما يؤدي إلى شعور بالسلبية والضياع وتشتت الانتماء.

وحتى يمكن حماية المجتمع من مثل هذا المصير؛ فإنّ وسائل الاتصال يجب الاستفادة من فاعليتها في دعم الهوية الثقافية للمجتمع، بما يكفنه من إقامة العلاقة المتوازنة بين أفراده أولاً ثم مع المجتمع الخارجي بثقافته المتعدّدة من ناحية أخرى، والأمر هنا يتطلب إعادة النظر في الثقافات الغازية وإدراك الإيجابي منها والسالب، حتى يمكن الوصول إلى ثقافة قومية تؤكد الذاتية الثقافية والقدرة الإبداعية التي تعمل على تنمية الاتجاه القومي.

لنّ تأكيد الأصالة وتحصين الهوية الثقافية والمحافظة على الذاتية الثقافية للمجتمع تُعدّ أمراً ضرورياً ومتطلباً أساسياً من قادة الفكر والإعلام والتعليم في الدول النامية على وجه الخصوص، أو على الأقل بالنسبة للدول التي تمتلك قيمهً تُلاً خاصة قائمة على مفاهيم عقديّة راسخة إذ



يتطلب المحافظة عليها وتأكيد فاعليتها في عملية التكوين الذاتي لتحول دون الاحتياج الإعلامي والتدفق الثقافي الذي يهدد بقاء هذا المجتمع<sup>(1)</sup>.  
وهنا يعرض لنا تساؤل أساسي مهم: هل للاتصال وحده القدرة المطلوبة على التأثير؟

صحيح أن لوسائل الاتصال تأثيراً ملموساً في ثقافة الأمم والشعوب غير أن هذا التأثير قد يقل إلى درجة كبيرة إذا ما ووجه بعوامل أساسية تحد من قدرته ونجاحه في تحقيق المضامين التي سعى إليها من خلال عملية الاتصال، من هذه العوامل ما نراه ممثلاً بصورة واضحة في مجتمعاتنا الإسلامية نموذجاً للمجتمعات التي قد لا يسهل على وسائل الاتصال وحدها أن تحدث فيها التغيير الكلي الشامل، ونذكر منها:

وألاً: الجماعات المرجعية التي ينتمي إليها أفراد المجتمع، مثل: القبيلة والجماعات الدينية أو الثقافية التي يرتبط بها الأفراد تحت موثيق و عهود ونظم يتربى عليها المجتمع، فإن ما نشأ لدى هؤلاء من أفكار وثقافات قد يستعصي استبدالها بمجرد بث رسالة اتصالية تحمل أفكاراً معاكسة، وبذلك فإن التأثير قد ينقلب إلى مواجهة ورفض صريح، فإن العالم الإسلامي حتى اليوم . وبالرغم من ضعف الالتزام بشرائعه وعباداته لدى بعض الناس - مازال رافضاً لكثير من ثقافات الغرب التي تحملها وسائل الاتصال

(1)لحمد فرّاج، المرجع السابق.

المختلفة، بل إنَّ بعض المسلمين ممن ذهبوا إلى مواطن هذه الثقافات أعلنوا رفضها في موطنها، ونشأت جماعات لها صفة الجماعات المرجعية تحمل أفكارها وثقافتها؛ بل وتدعو إليها داخل بلاد المهجر مما أوجد لوناً آخر من التفكير والثقافة داخل هذه المجتمعات المستضيفة؛ بل واعترف بعضها رسمياً بحقوق هؤلاء الأفراد في ممارسة عباداتهم وطقوسهم والاحتفال بشعائهم تحت مظلة قانونية، ولم تنجح وسائل الاتصال في إحداث تغيير سلبي أو إيجابي في كثير من اتجاهات أمثال هؤلاء الناس.

وجدير بالذكر أنَّ التغيير لا يعني فقط الانتقال من الأحسن إلى الأسوأ، ولا من الأسوأ إلى الأحسن؛ ولكن قد يتضمن التغيير إحداث عادات وتقاليد جديدة لم تكن معروفة في المجتمع الذي استهدفته وسائل الاتصال، فإنَّ ما حدث من عادات دخلت على تقاليد الزواج والعائلة والأطفال في كثير من المجتمعات النامية نقلاً عن المجتمعات الغنية أو المتقدمة يصلح دليلاً على أثر الاتصال في الفكر والثقافة، فتغيَّرت كثير من عادات الاحتفالات بالزواج مثلاً، ودخلت بعض المجتمعات الاحتفال بأعياد الميلاد، والتي لم تكن معروفة في القديم بين الأسر المتوسطة والفقيرة.

**ثانياً:** قادة الرأي والتوجيه في المجتمع لهم أثرهم في العملية الاتصالية نجاحاً أو فشلاً، لا سيما إذا كانوا ممن يمتعون برصيد أدبي أو مكانة

فكرية وعقدية، ولقد ظلت أوروبا نفسها حبيسة الفكر الكنسي قروناً طويلة، ترفض أي جديد مهما كان مقتنعاً وترد علم العلماء لأن رجال الكنيسة لم يقبلوه، وفي المجتمع القروي مثلاً في كثير من البلاد العربية والإسلامية ما زالت سلطة القبيلة الأب أو الجد الأكبر تتحكم في كثير من الأمور الاجتماعية للأبناء سواء من حيث الزواج أو الطلاق أو حتى اختيار صيغة التعليم والعمل، وتزداد أهمية قادة الرأي إيجابياً إذا ما كانوا على بينة واضحة ويملكون وسائل الإقناع المبرهنة بالعقل والعلم والدُّجَّة، وفق أسس وأفكار متفق عليها في المجتمع، مع اشتغالهم بالالتزام والصالح والقبول، وهذا ما يجب أن يكون عليه علماء الإسلام بما يعطيهم قدرة القيادة الناصحة ضد تيارات الإفساد والتبديل السلبي لما عليه المسلمون الصالحون.

**ثالثاً :** الشعور بالانتماء سواء للمكان أو للفكر أو للاعتقاد، يحول دون تسرب أفكار جديدة أو إبدال ثقافات بأخرى لا تتفق وما عليه الفرد من شعور وتعلق، ويتوقف ذلك على قدرة مصادر المعرفة التي يتلقاها الأفراد ومدى فاعليتها في تركيز معاني الانتماء للوطن أو العقيدة بجانب إحياء الممارسة العملية والإيجابية للمبادئ والقيم التي تربط الفرد بما عليه من اعتقاد.

ففي المعلوم أنّ وسائل الاتصال اليوم لا تعمل من فراغ وخصوصاً وسائل الاتصال الإعلامية، إنها تتطلق من مصادر تحمل قيماً خاصة معلبة في برامج ترفيه أو أخبار أو تعليق، فهي ليست أدوات ولا وسائل بريئة محايدة في كثير من أحوالها، فهي تسعى إلى إزالة قيماً بديلاً بغيرها أخرى جديدة<sup>(1)</sup>، أو ترسيخ شيء قائم أو التصدي لشيء آخر. وعلى ذلك فإنّ الأمر يتوقف على قدرة المستقبل على إدراك ما ترمي إليه وسيلة الاتصال، فإن كان إدراكه سليماً مبنياً على أسس راسخة فإنه سيكون بعيداً عن التأثير المطلوب، أما إذا ضعف انتماءه إلى وطنه أو عقيدته بابتعاده عن الممارسة الحية لمتطلبات هذا الانتماء؛ فإنه يصبح هدفاً سهلاً لما تبثه وسائل الاتصال من أفكار وثقافة، وعلى ذلك فإنّ الانتماء الصحيح والشعور الحي بهذا الانتماء يحول كثيراً دون تأثير وسيلة الاتصال بصورة كاملة.

رابعاً: قدرة وسائل الاتصال في المجتمع المستهدف، حيث أنّ هذه الوسائل إنما تعمل في صراع، وكلما توفرت القدرة للوسيلة الاتصالية في التأثير أمكن لها إلغاء تأثير غيرها على المجتمع... وها لا شك فيه أنّ الوسائل الاتصالية المحلية أقدر على التعامل مع المجتمع الذي تتطلق

(1) د. محمد عبد الرحمن الحضيف: كيف تؤثر وسائل الإعلام، مكتبة العبيكان،

الرياض، 1415هـ.

منه لقدرتها على استيعاب احتياجاته ومتطلباته، وفهم جذور الثقافة والفكر في هذا المجتمع الذي تنطلق منه، فإذا ما توفّرت لها عناصر القوة والتقنية الفاعلة والانتشار والتقبل من جمهور المستقبلين أمكن لها احتلال الأولوية في عقولهم واحتكارهم، مما يصعب معه غزو وسائل أخرى بأفكار مغايرة. ولعلّ هذا الأمر دعائيكراً من الدول النامية إلى أن تنتبه إلى وسائلها الاتصالية وفي مقدمتها وسائل الإعلام. ولتأخذ أولوية في برامج التنمية المحلية، بل وتسارع الكثير منها للاستقلال بأنظمة خاصة تعطيها فضل السبق في البث، ليس على المستوى المحلي فقط؛ بل على المستوى الدولي. وهذا ما يفسّر انتشار القنوات الدولية في كثير من الدول النامية رغم ما تعانيه بعضها من مشاكل اقتصادية حادة.

**خامساً : المستوى التعليمي والثقافي في المجتمع بما يتيح للأفراد قدرة الانتقال أمام هذا الكم الهائل من المعلومات والأفكار والثقافات التي تحملها وسائل الاتصال على اختلاف أنواعها، سواء كانت على مستوى التخاطب المباشر أو الانتقال أو الإرسال الإعلامي، مما جعل الجمهور المستقبل هدفاً للعديد من الاتجاهات التي صنعتها خبرات وقدرات علمية متخصصة حيث، لم يعد الاتصال اليومي أمراً تلقائياً ولا عشوائياً، بل قضية تخدمها عقول وأجهزة وقدرات عالية الثقافة متقدمة في مهاراتها وتخصصاتها، هو عليك فإنه لا بد أن يقابلها جمهور على قدر من الفهم والإدراك**

للتعامل مع هذه الرسائل ويمك أداة التمييز والتحري عن كل رسالة. ماذا يريد؟، ومن يريد؟، ولماذا؟، وبماذا يريد؟، وبذلك يستطيع تصنيفها وفق أسس فكرية وثقافية فيأخذ منها على بيّنة، ويترك ما يتركه على بيّنة، وصدق الله العظيم **لِيُقَهَّلَ: يَلْدُنُوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِذْ مَا يَنْذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ** {<sup>(1)</sup>.

الاتصال وواقع العالم الإسلامي:

لمسنا مما سبق ما للاتصال من أثر مهم نتيجة التقنيات الحديثة والمتطورة إذ أصبح من اليسير أن ندرك سيطرة الاتصال بوسائله المتاحة اليوم على عمليات التشكيل والتحويل الثقافي في المجتمع الإنساني، مما أَدَّرَ كثيراً في العمليات الأساسية للتأثير، مثل: التعليم، والتربية، والسياسة. ولقد كان لكثافة التدفق الهائل للمعلومات والأفكار التي تحملها وسائل الاتصال من الدول الغربية والغنية بصفة خاصة إلى الدول النامية والفقيرة، شهود واضح في كثير من مجالات الحياة الإنسانية في هذه البلدان المستهدفة ولا سيّما بعدما خصّصت وسائل اتصالية لكل بلد من هذه البلدان.

ولعلّ العالم الإسلامي والذي يقع معظمه ضمن دائرة البلدان النامية، بل ومعظمه ضمن البلدان الفقيرة كان أكثر استهدافاً من غيره من قِبَلِ دول

(1) سورة الزمر، الآية (9).

الغرب خاصة والتي تسيّدت علم الاتصال تقنياً وعلموا بداعياً، وليس من العسير على من يتابع الأحداث العالمية أن يلمس المواجهة الشرسة بين الغرب بكل اتجاهاته الثقافية والسياسية والمجتمع الإسلامي في أي بقعة من هذا العالم المعاصره ولعلّ هذه المواجهة كانت نتيجة لما يظنّه الغرب من خطر الإسلام على كياناته وأطماعه في السيادة على دول العالم، ولما أصبح يُسمّى بالنظام الحديث أو الجديد والذي تنفرد به . إلى حدٍ بعيد . الولايات المتحدة الأمريكية بعد ضور منافستها الأساسية دولة الاتحاد السوفييتي .

لقد أصبحت عملية الاتصال بالنسبة للعام الإسلامي وفق الحسابات المشاهدة تقّل جانباً سلبياً خطيراً لكيان هذه الأمة ونموها الثقافي من خلال المشاهد الآتية:

**وألاً:** إغراق العالم الإسلامي بتيقن م ركّز من معلومات والأفكار الغربية وإخضاع مؤسسات التوجيه والتنقيف والإعلام للنموذج الغربي، مما يشكل استعماراً متوعاً جديداً بدلاً عن الاستعمار العسكري الذي عانتها أمم المسلمين سنوات عديدة، نتج عنه اختلال توازن في التبادل الإعلامي والثقافي كان الخاسر فيه هو عالم المسلمين.

**ثانياً:** ضوب حصار شديد حول العالم الإسلامي بما يحول بينه وبين الانعتاق من سيطرة التدفق الغازي إذ تم إغلاق كثير من منافذ الاتصال

سواء أكانت اتصالاً حركياً . كحصار الطيران . أم حصاراً اقتصادياً . مثل سلاح المقاطعة المعلنة وغير المعلنة . أو قيود السفر والتعسف في منح تأشيرات الدخول للبلدان الغربية، أو ما كان حصاراً إعلامياً يظل فيه العالم الإسلامي عالمة على ما يوجد به الغرب من معلومات أو ثقافات، في حين يتم التعقيم الشديد على كل حدث داخل العالم الإسلامي، ولا ينشر إلا ما يمثل جانباً سلبياً في حياة هذه الشعوب المغلوبة.. بل أعطى الغرب نفسه حق تفسير الأحداث من وجهة نظر بعيدة عن الحياد، وأصبغ مسميات لها دلالاتها السلبية على كل نشاط إسلامي، بما في ذلك مفهوم الشريعة الإسلامية.

**ثالثاً :** استجابة كثير من قيادات العالم الإسلامي لوسائل الضغط الغربي، وتأثر بعضهم بمضامين الرسالة الصادرة عن بلاد الغرب ودول الاستعمار الحديث، مما كان له أثره الواضح على ما يصدر من قيود على حرية المواطنين في هذه البلاد الإسلامية بدو جنة ما يشيعه الغرب عن الإرهاب والأصولية والتطرف والذي لا يصدر . في نظرهم . إلا عن مسلم، بينما لا يذكر شيء عن إرهاب إسرائيل وقتلهم وتشريدهم . علناً . جموع الشعب الفلسطيني ولا عن عصابات المافيا أو جيش أيرلندا وما يقومون به من قتل وسلب وتدمير أو حتى عن مجازر الصرب لأبناء وبنات و أطفال المسلمين في البوسنة.



و انشغل العالم الإسلامي بانشغال قاداته بالخلافات الداخلية، حتى أصبح المواطن المسلم لا يجرؤ أن يدخل بلداً مسلماً إلا بعد طول إجراءات، وفي الوقت الذي تتجه فيه بلاد الغرب إلى التكتل الاقتصادي والسياسي، والتكامل الثقافي، والتعاون الاجتماعي، في نفس الوقت تزداد فرقة المسلمين وتشتتهم، بل ونشأت الصراعات الطائفية والعنصرية التي كانت على حساب التنمية في كل مجالاتها نظراً للاستنزاف المادي أو البشري، فلم تعد وسائل الاتصال في هذه البلاد في خدمة الأغراض السلمية والتنموية بقدر ما هي مسخرة في مجالات الصراع القبلي والعرقي مما زاد من تخلف هذه البلاد أو على الأقل تخلف معظمها.

## الاتصال وتنمية الثقافة الإسلامية

الاتصال والمجتمع الإسلامي:

يقول الأستاذ إبراهيم علي رئيس اتحاد الكتّاب المسلمين في ماليزيا: نعتقد أنّ وسائل الاتصال الجماهيري كقوة ثانية قادرة على أن تقوم باتخاذ الخطوات اللازمة لنشر الوعي بضرورة الموازنة بين المطالب المادية والروحية، وبمعنى آخر ضرورة تغيير أسلوب حياة وتفكير كافة المسلمين وتوجيههم نحو المثل الإسلامي الأعلى.. وفي هذا الصدد فإنّ قوة إقناع وتأثير وسائل الإعلام لم تستغل بصورة كاملة لتحقيق مثل هذه الأهداف.. فهي بقوتها في الإقناع وقدرتها على الإعلام بشكل فعّال قد ساعدت على قلب الحكومات وخلق الاضطرابات".

ثم يستطرد قائلاً: "ومن الأمور المحزنة في بلدنا أنه حتى في الصحف والإذاعات التي يسيطر عليها المسلمون سيطرة كاملة، فإنّ الشريعة الإسلامية تظهر فقط أيام الجُمع أو ليالي الخميس، أما أخبار الجرائم والآثام، فإنها تنشر كل يوم تقريباً...".

ويختتم هذه الفقرة بقوله: "... وفي ثمَّ فإنَّ تعليم المسلمين شريعة الله يجب أن يكون من قوة التأثير، حيث يثير اهتمامهم لمعرفة وممارسة هذه الشريعة في القرآن الكريم والمعيار الأساسي هو حفزهم لذلك.."<sup>(1)</sup>.

ولعلَّ في هذه الإشارة ر غم أنها ركزت على وسائل الاتصال الإعلامي. ما يشير إلى حاجة العالم الإسلامي، الذي تعتبر ماليزيا واحدة من أهم دوله، ومن أكثرها عدداً ووزناً، إلى نوع من الاتصال يعيد لهذه الأمة أصالتها القائمة على شريعة الله.. ليس فقط في المجال الإعلامي بأساليبه ووسائله المعروفة، بل ليشمل كافة أنواع الاتصال البشري بمفهومه الواسع.. إنَّ العالم الإسلامي اليوم يعاني ألواناً من الانفصال والتباعد الفكري والثقافي نتيجة مظاهر التمزُّق السياسي والعسكري، بل والتفكُّك الاقتصادي بين دوله وشعوبه، على الرغم من توفرُّ كافة أسباب الوحدة بين مجموعة هذه البلاد التي تقف العقيدة والانتساب إلى الإسلام في مقدمة هذه المبررات الوحديَّة، إضافة إلى العامل الجغرافي الذي يضمن لهم اتصالاً برياً وبحرياً بسهولة ويطي تحرُّكاً سهلاً لأبناء هذه البلاد، يتيح لهم اتصالاً ثقافياً وحضرياً ممتازاً قد يفوق ذلك النوع من الاتصال الذي قام بين دول أوروبا في صورة السوق المشتركة أو الأحلاف العسكرية

(1) د. إبراهيم علي: استخدام وسائل الاتصال في إحداث التغيير، الإعلام الإسلامي والعلاقات

الإنسانية، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ص577-576.

أو الانصهار الثقافي الذي تسعى إليه عن طريق البحث عن لغة منطوقة مشتركة لأوربا، بينما يتوقّر للعالم الإسلامي لغة القرآن الكريم، التي تعتبر . ولا شك . رصيذاً هائلاً لنمو ثقافة واعية معطاءة تصلح سلاحاً فاعلاً يحول دون تغوّل وسيطرة الثقافة الوافدة بغيرابتها عن الدّين وغبابتها عن عادات وتقاليد هذه الأمة .

لقد اتجهت حركة النمو الثقافي في كثير من بلاد المسلمين نحو النموذج الغربي نتيجة هذا الانفلات عن قيم وعناصر البناء الإسلامي للفكر والتعامل الحضاري، ما أوجد صداماً حقيقياً بين ثقافة غربية تحملها وسائل اتصال متطورة ويحملها فكر قادر على التعامل مع ما يريده فضلاً عن صدامه بالإسلام، وبين أصالة إسلامية لم تجد من يدرك مقها ومُ ثلها العليا، إما جهلاً بها أو حقداً عليها .

ولما كان الإسلام بطبيعته لا يعمل في فراغ، بل يعمل من خلال نفس إنسانية تدرك معاني العبودية لربها وتميّز بين الخير و الشر وصدق الله العظيم **إِتْقِينُوا رَبَّكُمْ بِأَسْوَأِهَا فَمَا لَهُمْ بِهَا فُجُورَ هَا وَتَقْوَاهَا قَدْ فُلِحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** <sup>(1)</sup> . لذلك فإنّ ابتعاد المسلمين عن هذه الفاعلية في كثير من ممارساتهم الاجتماعية والثقافية أوجد هذا الخل والاضطراب في المجتمع الإسلامي، حيث ظهرت العنصريات وتعدّدت

(1) سورة الشمس، الآيات (7-10).

اللهجات، واختلفت الجماعات حول الفروع دون الأصول، وظهرت مدارس فكرية أقرب إلى الصراع منها إلى الالتقاء والتفاهم، تغذي بعضها أحياناً مصادر معادية للدين الإسلامي فانحرفت بذلك قوة الاتصال، وكادت أن تختفي لغة التفاهم مما أضعف بالتالي مسيرة التنمية الثقافية المرجوة، لضعف وسائل الاتصال البشري، بل والتقني والحركي من مواصلات وهاتف.

وظلت المعلومات المثمرة حبيسة مصادرها، يصعب الانتفاع بها داخل المجتمع المسلم، فضلاً عن الانتفاع بها خارج المجتمع المسلم، وفي أحسن الحالات تظهر فاعلية إيجابية بين الصفوة من الناس بينما عامة المجتمع انشغلوا في تحصيل القوت اليومي، ومصارعة مطالب الحياة، وتأمين مستوى معيشي مقبول.

وحتى تستقيم مسيرة التنمية الثقافية في البلاد الإسلامية وفق قواعد الإيمان وهدى هذا الدين فإنه لا بد من انعتاق وسائل الاتصال وتحريرها من السيطرة الغربية المعادية للمسلمين، وذلك وفق مسارين متوازيين:

**المسار الأول:** إعادة بناء الاتصال ووسائله في العالم الإسلامي بما يجعله عاملاً فاعلاً في تنمية ثقافية ومعرفية واعية قائمة على هدي الكتاب والسنة، ومستجيبة لحاجة المجتمع المسلم الحقيقية سواء في المجال الإعلامي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي، لتقود في النهاية إلى

التوافق ووحدة التوجه لدول العالم الإسلامي وشعوبه، ومن ثمَّ القيام بواجب الدعوة إلى هذا الدِّين لكل شعوب العالم، وفق النموذج الأمثل الذي تصل إليه مجتمعات المسلمين، باعثوها الناتج الأفضل للثقافة الواعية الهادية.

**أما المسار الثاني:** فيتطلب التصدي لتدفق وسائل الاتصال الأجنبية، بما يساعد على تنقية مضامينها، فيؤخذ الصالح منها ويرد الضار، وفق مقاييس شرع الله تعالى ومتطلبات تطلعات الصالحين في المجتمع.

و الأمر يتطلب . في كلا المسارين . الأخذ بأحدث النظم الاتصالية ما أمكن، مع استثمار العلاقات الإنسانية التي دعا إليها الإسلامي لتكون أساساً للتعامل، والتخطيط والتأصيل لعمليات الاتصال في كل وسائلها وأجهزتها.

خاتمة:

لِ للاتصال . بمعناه الواسع الشامل . وظيفته الملموسة الظاهرة في التنمية الثقافية، وصناعة الفكر، وتحديد اتجاهات الأفراد والجماعات، إذا ما استطاع تخطي حواجز الثقافات المحلية للمجتمع المستهدف، وقد استفاد الغرب من تقنيات الاتصال الحديثة على حساب التخلُّف التقني الذي يعانيه عالم المسلمين، فكلُّ تأثيره واضحاً في تغريب الأمة، وتهديد العديد من تراثها العقدي والفكري.. ولولا طبيعة هذا الدِّين، التي تميّزه بالثبات والأصالة والرسوخ والشمول فضلاً عن حفظ الله تعالى له .. لوصلت الأمة الإسلامية المعاصرة إلى مرحلة الفناء . لاقدَّر الله . ولكنه

الإسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ محفوظاً بحفظ الله تعالى، ثابتاً بثبات مصدره الثقافي والعلمي، وصدق الله العظيم ﴿لَقَدْ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾<sup>(1)</sup>.  
م ولَعُدُّ أمام المجتمع المسلم في عالمه الإسلامي المعاصر إلاَّ العودة إلى هذا الدِّين ومصادره الأساسية من لكتاب والسُنَّة، بما يقوده إلى نورٍ ثقافيٍ يضمن خيري الدنيا والآخرة.

(1) سورة الحجر، الآية (9).

## مراجع البحث

وَأولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: من كتب التفسير:

[1] القوطي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام

القرآن.

ثالثاً: من المراجع الإعلامية:

[2] د. انشراح الشال: الإعلام الدولي عبر الأقمار الصناعية.

[3] جون ميرل: الإعلام وسيلة ورسالة، ترجمة مساعد خضر

الحارثي.

[4] د. جيهان رشتي: علم الاتصال الإعلامي في الدول النامية.

[5] د. سعد بن بنارة الزغير: التلفزيون الاجتماعي في الدول النامية.

[6] سوق ماكبراير "وأخرون": عالم واحد وأصوات متعدّدة.

[7] منشورات منظمة الإيسيسكو: وسائل الاتصال الحديثة وأثرها

على المجتمع الإسلامي.

[8] منشورات الندوة العالمية للشباب الإسلامي: الإعلام والعلاقات

الإنسانية 1996م.